مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

الوراقة في الأندلس مابين القرن 4-7هـ/ 10-13م قراءة في المدلولات والشواهد

د. ربوح عبد القادر، جامعة زيان عاشور/ الجلفة - الجزائر-

الملخص

لقد ظهرت صناعة الورق مع ازدهار حركة التأليف والترجمة، وبعد وجود الورق وانتشار صناعته في بغداد خلال الربع الأخير من القرن الثاني للهجرة. وقد انتقلت هذه الصناعة – بعد أن كان استخدام الورق متأخرا – بل ظل الرق هوالمادة المستخدمة في الكتابة حتى القرن الرابع للهجرة، وقد تميزت الأندلس بحواضرها وأكوارها، بل إن كل مدينة من مدنها امتازت واختصت بعلم من العلوم، فاشتهرت قرطبة بالفقه، وشنترين بالتصوف، وشاطبة بصناعة الورق والنسخ.

كما ساهمت الأسر الحاكمة مابين القرنين الرابع والسابع للهجرة في بلاد الأندلس من إثراء رصيد هذه الصناعة فظهر رجال مشهورين بذلك من خلال جهودهم وأعمالهم، قدموا من خلالها دفعا للتراث العربي والإسلامي. ومما سبق يمكن طرح التساؤل التالي:

كيف تطورت الوراقة في الأندلس؟ وما جهود الأندلسيين في ذلك؟

المقدمة:

لم تتفق كلمة المعنيين بالأمر على تحديد مدلول الوراقة، واختلفوا في تفسيرها على ثلاث اتجاهات:فابن الحاج في المدخل: يجعلها قاصرة على صناعة الورق ثم يخصص لكل من النساخة والتسفير فصلا على حدى[1]. ويتوسع ابن خلدون(ت808هـ/1405م) في تفريعها، ويجعلها شاملة للاستنساخ والتصحيح، والتسفير وسائر شؤون الكتبية والدواوين، وبهذا تندرج فيها صناعة تحضير الرق وإعداد الورق[2].

ولكن صناعة الورق لم تلبث أن انتشرت في سائر الأمصار الإسلامية،لم تعد حكرا على خراسان بعد أن نشأت مهنة الوراقة،عقد ابن خلدون(ت808هـ/1405م) لهم فصلا في

مقدمته بسط فيه صناعاتهم فقال:" كانت العناية قديما بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالضبط والرواية، وكان سبب ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة، وقد ذهب العهد بذهاب الدولة وتقلص العمران، بعد أن كان منه في الملة الإسلامية بحر زاخر بالعراق والأندلس، اذ هوكله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة، ونَفَاق أسواق ذلك لديهما، فكثر التآليف العلمية والدواوين، وحرص الناس على تناقلهما في الآفاق والأمصار، فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين، واختصت بالأمصار العظيمة العمران، وهي من أشهر التعريفات المتقدمة للوراقة[3].

ويفهم من هذا إن الوراقة جاءت تابعة لقوة الدولة واتساع الحضارة، وان الوراقين كان لهم مكان في الأمصار العظيمة والبلدان الكبيرة، فهم بمثابة المطابع الحديثة، التي تحتل أمصار بلادنا الآن، وكانت مهمتهم موزعة بين الانتساخ ظن والتصحيح والتجليد، والتذهيب، وكل ما يمت الى صناعة الكتب بصلة، وكان لهم أسواق في بعض الأمصار، كانت بمثابة المعاهد العلمية [4].

أولا-تاريخ الوراقة وصناعة الكتب في الأندلس:

لقد بدأ العرب تدوين انتاجهم الفكرية والأدبية بأدوات بدائية منها: جريد النخل اليابس والحجارة البيضاء، وأكتاف وأضلاع الإبل والأغنام، والجلود، والقماش الأبيض، وورق البردي الذي حظي بشهرة كبيرة في العصر العباسي، وكان أكثر تلك الأدوات استعمالاً.

يذكر ابن النديم (ت 384هـ/1047م) أن العرب كانت تكتب في أكناف الإبل، واللخاف وهي الحجارة البيض العريضة الرقاق، وفي عسب النخل، وأنهم بعد ذلك كتبوا في الجلود المدبوغة، ويذكر أن الدباغة في أول الأمر كانت بالنورة وهي شديدة الجفاف، ثم كانت الدباغة الكوفية ستدبغ بالتمر وفيها لين، ثم كتبوا في الورق الخراساني، وكان يعمل من الكتان، وحدث صنعة في أيام بني أمية وقيل في الدولة العباسية، وقيل إن صناعا من الصين عملوه بخراسان على مثال الورق الصيني الذي كان يصنع من الحشيش، ويذكر من أنواعه: السليماني، والطلحي والطاهري[5].

ويقول ابن خلدون (ت808هـ/1405م): " وكانت السجلات أولا لاستنساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والاقطاعات والمسكوكات والصكوك، في الرقوق المهيأة بالصناعة الجلد، لكثرة الرقة وقلة التآليف صدر الملة، كما نذكره، وقلة الرسائل

السلطانية والصكوك مع ذلك، فاقتصروا عل الكتاب في الرق تشريفا للمكتوبات، وميلا إلى الصحة والإتقان، ثم طما بحر التأليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه، وضاق الرق على ذلك، فأشار الفضل بن يحي بصناعة الكاغد، وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه، واتخذه الناس من بعده صحفا لمكتوباته السلطانية والعلمية، وبلغت الإجادة في صناعته ما شاءت[6]،ويسجل الجهشياري (ت 331هـ/943م) أن الورق كان مستعملا بكثرة في أيام جعفر المنصور، وانه كان يجتلب من مصر، اذ لم تكن صناعة الورق قد أقيمت في بغداد[7].

وقد وجد الرق منافسة شديدة من الكاغد عند ظهوره وخاصة فيما يتعلق بالكتابات التي تنظم معاملات الناس وتوثقها، ولهذا اصدر الخليفة العباسي هارون الرشيد أمرا ب:" الا يكتب الناس إلا في الكاغد لان الجلود ونحوها تقبل المحووالإعادة فتقبل التزوير بخلاف الورق فانه متى محي فسد، وان كشط ظهر كشطه[8].

ويعود اختراع الورق إلى الألف الثالثة قبل الميلاد (حوالي 2700 ق. م)، فقد اخترع المصريون القدماء مادة صالحة للكتابة، مع سهولة الحصول على هذه المادة بثمن في متناول الأيدي، وهي ورق البردي، وكان ذلك من أعظم الاختراعات في تاريخ البشرية، وقبل ذلك كانت الكتابة (التي ظهرت في الألف الرابعة) مقصورة على الحجر أواللوحات الطينية، التي استخدمها السومريون، الذين فضلوا الكتابة عليها وأيسر في التكلفة من قطع الحجر [9].

وقد نقل المسلمون صناعة الورق من الصين وذلك سنة 134هـ/746م عندما فتحوا سمرقند، وبقوا فيها مدة من الزمن حاول الصينيون تحرير أنفسهم ولكن العرب المسلمين استطاعوا من دحر تمردهم، وأثناء تعقبهم أسرء العرب عددا من أهل الصين الذين كانوا يعرفون صناعة الورق، والذين علموا العرب المسلمين عليها[10].

أما الورق فقد ظهر كمنافس جدي للبردي من عام 133 هـ/745م، أي بعد فتح العرب لمدينة فرغانة حيث عادوا بعشرين ألف أسير، بينهم بعض الصينيين الذين يتقنون صناعة الورق، وهؤلاء نقلوا هذه الصناعة إلى العرب، ومنذ ذلك الحين أسهم ظهور الورق مساهمة فعالة في ازدهار حركة التأليف والكتابة لسهولة تداول المخطوط الورقي بين الناس، بل ساهم في حركة الترجمة الضخمة التي قام بها العرب والمسلمون لنقل

مختلف العلوم والفنون والآداب من الحضارات والثقافات القديمة كالفارسية والهندية واليونانية إلى اللغة العربية[11].

وفي هذا يذكر المستشرق ستانوود كب (1982-1881م): «أن العرب قد تعرضوا في سمرقند الواقعة على الشمال من الهند مباشرة لهجوم الصينيين عام 134 هـ/ 751 م، وفي أثناء صد هذا الهجوم بنجاح وقعت يد الحاكم العربي على أول قطعة من الورق أتيح لها أن تجد طريقها إلى الغرب من الصين حيث جاء اختراع الورق هناك قبل زمن المسيح»[12].

وأقبل الحاكم العربي في لهفة على استقصاء الأمر من أسرى المعركة، فعلم أن من بينهم من يحذق هذه الصناعة، فأرسل هؤلاء الصناع إلى فارس ومصر ليضطلعوا بتعليم فن صناعة الورق من الكتان والخرق والألياف النباتية. وربما جاء اهتمام العالم العربي بصناعة الورق على صورة غير عادية نتيجة لسابق معرفته بالبردي المصري *Papyrus* الذي كان قد أخذ يحل محل الرق *Parchment* الباهظ الثمن. وكانت صناعة الورق البردي تكاد تكون متشابهة، ولكن الورق أفضل كثيراً بالنسبة للطباعة[13].

وعرف العرب أسرار صناعة الورق الصيني من خلال سمرقند التي فتحوها في عام 93هـ/ 712م، وفي عام 178هـ/ 794م، ولقد أسس الفضل البرمكي (ت190هـ/802م) في عهد هارون الرشيد (193-170هـ /786-809م) أول صناعة للورق في بغداد، ومن ثَمّ انتشرت الصناعة بسرعة فائقة في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فدخلت سوريا ومصر وشمال إفريقيا وإسبانيا. وكان الناس حتى ذلك الوقت يكتبون على الرق والعسب واللخاف، ثم أمر هارون الرشيد -بعد أن كثر الورق- ألا يكتب الناس إلا في الكاغد (الورق)[14]، وتحسنت الصناعة تحسناً ملموساً بسرعة كبيرة وأنتجت المصانع أنواعاً ممتازة من الورق، أما المداد "الحبر" فلقد كان العرب يستوردونه من الصين، أويصنعونه محلياً من الزاج أوالعفص، أوالصمغ أوالرماد، وهذا أمر أدى إلى تسهيل إنتاج الكتب بطريقة خيالية عما كان عليه الأمر في أي وقت مضى[15].

وطور المسلمون صناعة الورق وأنتجت المصانع الإسلامية أنواعًا ممتازة من الورق، وأدى ذلك إلى تسهيل إنتاج الكتب بطريقة لم تكن موجودة قبل العصر الإسلامي؛ ففي أقل من قرن من الزمان، أنتج المسلمون مئات الآلاف من نسخ الكتب العلمية

والأدبية والدينية والفنية؛ التي ازدانت بها مئات المكتبات العامة والخاصة في أرجاء العالم الإسلامي من قرطبة إلى سمرقند وصولاً إلى الصين.

ويعين ابن النديم(ت 384هـ/1047م) فترة من الزمن في أيام الدولة العباسية كانت الناس فيها ببغداد لا يكتبون إلا في الطروس – والطرس في اللغة: الصحيفة تمحى ثم تكتب – وهذه الفترة هي سنون تلت نهب الناس للدواوين في أيام محمد ابن زبيدة، وكانت الدواوين في جلود فكانت تمحى ثم يكتب فيها[16].

والظاهر أن العرب كانوا يكتبون في كل من الجلود والأوراق في عهد الدولة الأموية، وصدر صالح من الدولة العباسية، وان الورق لم يستعمل بكثرة ظاهرة إلا منذ أشار الفضل بن يحيى البرمكي(ت190هـ/802م) بصناعة الكاغد[17]، وكان ثقة القوم بالوراقين نازلة، لأنهم لم يكونوا في الغالب من العلماء أومن أهل الرواية، بل هم أهل صناعة وتكسب، وقد عرف الطعن فيهم قديما[18].

وقد ظلت صناعة الورق في الدولة الإسلامية صناعة مصرية خالصة طوال القرن الأول للهجرة، وأوائل القرن الثاني للهجرة حتى اخذ الورق الصيني الكاغد مكانه إلى جانبه واستخدم الورق أوالكاغد في مصر بطريقة منقطعة في ق3هـ، ولكنه لم يعتبر منافسا للبردي حتى أواسط القرن 5هـ[19].

وقد ظهرت صناعة الورق مع ازدهار حركة التأليف والترجمة، وبعد وجود الورق وانتشار صناعته في بغداد، في الربع الأخير من القرن 2هـ/8م، فلفظ الوراقة مشتق من الورق، وأطلقت كتب الأدب العربي على الطائفة التي تولت أمر هذه الصناعة اسم الوراقين[20].

وفي المغرب الإسلامي كان التحول لاستخدام الورق متأخرا حيث ظل الرق هوالمادة المستخدمة في الكتابة حتى القرن 5هـ، بل إن المصاحف المغربية ظلت حتى وقت قريب تكتب على الرق طلبا لطول البناء[21]، أما المصاحف والكتب المكتوبة على الرق فهي نماذج محفوظة في العديد من المكتبات العالمية للعمل كمدونة للمخطوطات المكتوبة على الرق[22].

وقد أخذ العالم الأوربي صناعة الورق من العرب المسلمين الأوائل لأن اهل أوربا عندما أفاقوا من سباتهم في الأجيال الوسطى استخدموا الكاغد الشامي الذي كان يسمى عندهم:*CHARTA DAMASCENE*، فانتقلت صناعة الورق عن طريق الأندلس، فقد كان

للعرب مصانع في شاطبة وبلنسية وطليطلة، ولما دخلت الأندلس في حوزة الإفرنج استبقوا تلك المصانع ثم انتقلت من اسبانيا إلى سائر ممالك أوربا [23].

ومما له دلالته أن صناعة الورق أدخلت إلى إسبانيا في القرن الثاني عشر، واتخذت لها مركزاً في طليطلة، ومنها انتشرت تحت رعاية مسلمي الأندلس إلى ممالك إسبانيا المسحية. وعلى هذا النحوتعلم الإيطاليون أيضاً فن صناعة الورق من مسلمي صقلية، ويؤكد ستانوود كب على أن أول وثيقة أوربية مسجلة على الورق إلى الملك روجر الصقلي *Roger of Sicily* ترجع إلى عام 495 هـ/ 1102 م وأقيمت مصانع الورق لأول مرة في إيطاليا عام 675 هـ/ 1276 م بمدينة فابريانو*Fabriano* وسرعان ما تبعتها مصانع أخرى في جميع المدن الهامة، وهكذا كان إمداد أوربا بالورق عدة بين يديها لإخراج الكتب بكميات كبيرة حين حدث اختراع الطباعة حوالي عام 844 هـ/ 1440 م[24].

ولذلك يؤكد الباحث رشيد الجميلي(1939-2015م)[25] على أهمية هذا الاختراع، وذلك أن الورق كان يمهد السبيل بسرعة إلى صناعة الكتب، وهذه الصناعة شرط هام وضروري لاكتساب المعارف، وفي التقدم الثقافي يمثل الورق عدته وآلاته ويخلق شرطه المادي، فالنشاط الفكري الذي لا غنى عنه في بلوغ الحقيقة، في حاجة مع ذلك إلى سبيل يحفظ المعرفة ويبغيها على مر الزمن، واقتضى الحال مع ذلك كثيراً من الوقت لكي يصل هذا الاختراع إلى الغرب، وانتقلت رويداً رويداً صناعة الورق من إسبانيا إلى فرنسا، ومن صقلية إلى إيطاليا[26].

كما يظهر إن الوراقة بدأت تزدهر في فاس منذ أواخر المائة الثالثة للهجرة أيام الإمام الإدريسي يحيى الرابع (305-292هـ/922--935م)، فقد اثبت البكري انه كان ينسخ له عدد من الوراقين، غير انه لا يزال لم يعرف اسم احد منهم، ولم يقع العثور على شيء من مستنسخاتهم، وقد كانت وراقة المغرب - في هذه الفترة – دون خط الأندلس وكان أهلها حسب المقدسي أحدق الناس في الوراقة، خطوطهم مدورة[27]. وفي هذه الفترة كانت النساخة على الرق لا تزال شائعة في الغرب الإسلامي، حيث يلاحظ البشاري أن المغاربة لعهد كانوا لا يزالون يكتبون على الرق في المصاحف والدفاتر[28].

ونجد حركة الوراقة والخطاطة كبيرة على عهد الناصر(300-350هـ/912-961م)،وقد بلغت شأوا عظيما على عهد المستنصر(350-366هـ/961-976م) كما هومعروف،وظهر وراقون وخطاطون وخطاطات توجد أسماء منهم عند ابن الفرضي

(ت403هـ/1012م) وابن الآبار (ت 685هـ/1286م) وابن بشكوال (ت578هـ/1182م وغيرهم[29]. أما عن صناعة الكتاب:فقد حدد القدماء لصناعة الكتاب المخطوط أربعة أركان هي: الكاغد (الورق) والمداد (الحبر) والقلم (الخط) والتجليد (التسفير)[30].

وهناك أدب محدود وصل إلينا يعرف بصناعة الأحبار والألوان للمعز يدعى محمد بن ميمون المراكشي الحميري[31]،وكتاب تحفة الخواص في طرف الخواص لأبي بكر بن محمد بن محمد بن ادريس بن مالك القضاعي الأندلسي من أهل اسطابونة ت 707هـ، وهوعالم لغوي، اشتهر بحفظ كتاب سيبويه (ت180هـ/792م) وكان حجة في العروض والقوافي، وقد نوه به لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ/1374م) بهذا الكتاب: انه رفع للوزير ابن الحكيم " ابي عبد الله بن عبد الرحمان اللخمي الاشبيلي كتابا في الخواص وصنعة الآمدة وقلع طبع الثياب غريبا في معناه[32].

وقد أشادت جل المصادر التي أرخت للأندلس بدور الحكام الهام في رعاية الحركة العلمية وشغفهم الشديد بالعلم فهناك عبد الرحمن الداخل (138 – 172 هـ / 755 – 788 م) قد شكل في عهده قاعدة قوية للحضارة فكان أعظم حكام الأندلس مكانة في البلاغة والأدب[33] ، وسار على نهجه أمراء وخلفاء وملوك الأندلس.من أمثال هشام الرضى (172 – 180 هـ / 788 – 986 م)، الذي يعتبر فترة حكمه فترة حاسمة في مجال التعليم في الأندلس، فقد كان مهتماً اهتماما مباشرا بالعلم والفقهاء مانحا اياهم كل ما يستطيع من حماية وتأييد [34]، وكان له ديوان أرزاق، لتوزيع عطاياه، حتى أنه " لم يقتل أحد من جنده في شئ من ثغوره أوجيوشه، الا وألحق ولده في ديوان أرزاقه "[35].

ومن بعده جاء الحكم الربضي (206-180هـ/796-822م)الذي عمل بعد القضاء على ثورة الربض الشهيرة على تشجيع العلم والعلماء حتى الدولة بعد وفاته في عصرها الذهبي علما وتعليما وثقافة وهوعصر عبد الرحمن الأوسط (206-238هـ/821-853م)والذي يمكن أن نطلق عليه "عصر النجوم اللامعة " ويكفي أن نورد بعض الأسماء اللامعة لنتبين مدى ما وصل اليه هذا العصر من ازدهار ورقي.

لذلك لا غرابة إن انتشرت المكتبات والكتب في جميع أنحاء البلاد وكثر عشاقها وكثر التأليف والمؤلفون، اسيما أنه وجد حكام شجعوا العلم وهم أنفسهم كانوا مثلاً عالياً في حب الكتب وجمعها والاهتمام بها فقد اشتهر عبد الرحمن الناصر(300-350هـ/912-

961م) بحبه للكتب حتى بلغت شهرته في ذلك، الامبراطور البيزنطي الذي رأى أغلى هدية يمكن أن يقدمها اليه، هي كتاب " ديسقورس "[36].

ولن نجد مثلا آخر أوروع من الحكم المستنصر(350-366هـ/961-976م) الذى يحتل مكانة خاصة بين الحكام المثقفين ووصفوه بأنه كان " جماعاً للكتب " وكان يرسل المبعوثين الى القاهرة ودمشق وبغداد والمدن الأخرى التى تهتم بالكتب، وذلك لشراء الكتب بأثمان عالية حتى استطاع أن يجمع نحو400 ألف مجلد لمكتبته37 بل ويروى أنه سجلعليها ملاحظات غاية فى الدقة، كما أنشأ داراً لنسخ الكتب وأودعها بمدينة الزهراء[38]

وأكد ابن حيان (ت 469هـ/1076م) على أن الحكم المستنصر(350-366هـ/961-976م) قد أمر ب " تحبيس حوانيت السراجين بسوق قرطبة على المعلمين الذين قد اتخذهم لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين بقرطبة"39 ذا يعني أن الدولة قد تبنت تخصيص مصروفات للمدارس40 وقد بلغ عدد المدارس 27 مدرسة مجانية، منها ثلاث مدارس ازدهرت في المساجد، و24 مدرسة في أحياء قرطبة المختلفة41.

ويذكر ابن حزم (ت 456هـ/1063م) في جمهرته نقلاً عن تليد الخصي أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكُتب أربع وأربعون فهرسة، وفي كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذِكْر أسماء الدواوين لا غير[42].

ومما ساعد على انتشار الكتب وازدهار الحياة العلمية انتشار صناعة الوراقة في الأندلس حيث تولى الوراقون *Librerias* نسخ ما يظهر من مؤلفات، كما اشتهرت الأندلس بمصانع الورق، وتميزت بهذا الإنتاج بعض المدن مثل غرناطة وبلنسية وطليطلة، وشاطبة، وقد حاز مصنع شاطبة شهرة واسعة في صناعة الورق الجيد.كما يؤكد جوستاف لوبون على أن العرب اخترعوا من الأسمال صناعة الورق الصعبة الكثيرة التراكيب، ويستند في هذا الرأي إلى أن العرب استخدموا هذا النوع من الورق في زمن أقدم من الزمن الذي استخدمته فيه الأمم النصرانية بمدة طويلة، فأقدم ورق موجود في أوربا من هذا النوع هوورق الكتاب الذي أرسله جوانفيل إلى الملك سان لويس قبيل وفاته عام 1270 م، أي بعد حملته الصليبية المصرية الأولى، مع أن لدينا ورقاً عربياً صُنع من الأسمال قبل هذا التاريخ بنحوقرن، كالورق المحفوظ بين مخطوطات برشلونة والمكتوب عليه معاهدة السلم بين ملك أرغونة الأذفونشي الثاني وملك قشتالة الأذفونشي

الرابع عام 1187 م والمصنوع في مصنع شاطبة العربي الشهير الذي امتدحه العالم الجغرافي الإدريسي (ت548هـ/1158م) في النصف الأول من القرن الثاني عشر من الميلاد[43]

.

وأسس العرب في الأندلس الكتاتيب لتعليم الصبيان اللغة العربية وآدابها ومبادئ الدين الاسلامي، على غرار نظام الكتاتيب في المشرق العربي واتخذوا المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين اللغة العربية ومبادئ الإسلام[44].

وقد بلغت مكتبته المستنصر(366-350هـ/961-976م) أوجَّها[45]، حيث كان الحكم شغوفا بالاطلاع والقراءة وجمع الكتب واستنساخها وإرسال البعثات لاستجلابها[46]وكانت مكتبته قريبة من الزهراء[47]، واجتمعت بالأندلس في عصره خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله أوبعده، وذكر ابن حيان(ت 469هـ/1076م) أن عددها بلغ أربعين ألف مجلد وعدد فهارسها 44 فهرسة في كل فهرسة 20 ورقة[48]، وهي فهارس في غاية الدقة والنظام وهي تدل على أن المكتبة تزخر بمجموعة عظيمة من الكتب، كما ذكر المقري أن الفهرست الخاص بدواوين الشعر لوحده بلغ أربعة وأربعين جزءا[49]، ويؤكد المقري قوله عن عظمة المستنصر (366-350هـ/961-976م) "كان محبا للعلوم، مكرما لأهلها، جماعا للكتب في أنواعه بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله...اجتمعت بالأندلس خزائن الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده"[50].

ويصف المستشرق رينهارت دوزي (1883-1820م)الخليفة الحكم: "لم يسبق أن تولى حكم إسبانيا حاكم عالم بهذه الدرجة، ورغم أن جميع أسلافه كانوا رجالا مثقفين وأحبوا أن يغنوا مكتباتهم فإن أحدا منهم لم يبحث بشغف ونهم عن الكتب النادرة والثمينة كما فعل الحكم[51]، وقد كان للمستنصر عمال مكلفون بتجليد واستنساخ الكتب القيمة قديمة أوحديثة،وكان قصره حافلا بالكتب وأهلها حتى بدا كأنه مصنع لا يرى فيها إلا ناسخون ومجلدون ومزخرفون[52].

وكان يعمل في مكتبته أمهر المجلدين الذين جاء بهم من صقلية وبغداد، ومعهم جمهرة من الفنانين رسامين وخطاطين تقدم إلى لجنة من كبار العلماء تقوم بمعارفتها وتصحيحها وتدفع لهم الدولة مرتباتهم في سخاء[53].

وكان تليد الخصي، وهومن أكبر موظفي البلاد، يعمل خازنا (أمينا) على المكتبة ومشرفا عليها، ومهمته أن يمدها بكل جديد، ويتابع فهارسها والحفاظ على كتبها، وبلغت فيها طبقا لروايته أربعمائة ألف مجلد[54].

ومع بداية القرن الرابع الهجري أصبحت المكتبات العربية والخزانات تعج بالمخطوطات والكتب التي تبحث في كافة العلوم والآداب، وعلى أقل تقدير ينسخ عن هذه الكتب والمخطوطات، ولقد كانت زيادة أعداد هذه النسخ من المخطوطات تعتمد على فئة من الكتبة الذين كانوا يسمون بـ"الوراقين" الذين انتشرت دكاكينهم في كافة أنحاء الدولة العربية الإسلامية، وكان هؤلاء ينسخون آلاف المخطوطات، ولولا وجود "الوراقين" ما كانت المخطوطات العربية بهذه الكثرة. والوراقة هي مهنة "الوراق" وهي أشبه ما تكون من حيث المهمة والإطار العام بدور النشر الحالي، وهي أقل مرتبة من التأليف، وتتطلب مهنة الوراقة حسن الخط وجودته، ودقة النقل والضبط[55].

فكان من آثار ازدهار الحركة الفكرية في عهد ملوك الطوائف ذيوع المكتبات الخاصة والعامة، ذلك أن كل مدينة أندلسية غدت عاصمة المملكة كبيرة أوصغيرة، وكان ملوك الطوائف يتنافسون في اقتناء الكتب النادرة والنفيسة منها:إذا كانت قرطبة هي المدينة الأولى فيما يتصل بالعلم وحب الكتب، فكانت إشبيلية المعتمد[56] والمدينة التي لا مثيل لها، وفي إحدى المناسبات جرى حوار بين ابن رشد فيلسوف قرطبة وبين ابن زهر طبيب إشبيلية الكبير بين يدي المنصور الموحدي، حول أي المدينتين أفضل، وانتهى الحوار بجملة مبينة لابن رشد تصور الواقع في دقة: "ما أدري ما تقول، غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية"[57].

ومن بين هواة الكتب في إشبيلية: شرف الدولة ابن المعتمد بن عباد فهومن "أحسن الناس سمتا، وأكثرهم صمتا، تخجله اللفظة، وتحرجه اللحظة، حريص على طلب الأدب، مسارع في اقتناء الكتب، مثابر على نسخ الدواوين، مفتح فيها من خطه زهر الرياحين[58].

وكان في مدينة شلب[59] وراقون أيضا [ويقص علينا الشاعر محمد بن حبوس الفاسي: دخلت مدينة شلب من بلاد الأندلس، ولي يوم دخلتها ثلاثة أيام لم أطعم فيها شيئا فسألت عمن يقصد إليه فيها، فدلني بعض أهلها على رجل يعرف بابن الملح، فعمدت إلى بعض الوراقين، فسألته سحائة ودواة، فأعطانيهما، فكتبت أبياتا أمتدحه بها،

وقصدت داره فإذا هوفي الدهليز، فسلمت عليه فرحب بي ورد علي أحسن رد وتلقاني أحسن لقاء، وقال أحسبك غريبا، قلت: نعم، فقال لي: من أي طبقات الناس أنت؟، فأخبرته أني من أهل الأدب من الشعراء، ثم أنشدته الأبيات التي قلت، فوقعت منه أحسن موقع، فأدخلني إلى منزله، وقد ملي الطعام وجعل يحدثني، فما رأيت أحسن محاضرة منه، فلما آن الانصراف، خرج ثم عاد ومعه عبدان يحملان صندوقا حتى وضعه بين يدي، ففتحه فأخرج منه سبعمائة دينار مرابطي فدفعها إلي وقال: هذه لك، ثم دفع إلي صرة فيها أربعون مثقالا، وقال: هذه من عندي، فتعجبت من كلامه، وأشكل علي جدا وسألته: من أين كانت هذه لي؟ فقال: سأحدثك: إني وقفت أرضا من جملة مالي للشعراء، غلتها في كل سنة مائة دينار، ومنذ سبع سنين لم يأتني أحد لتوالي الفتن التي داهمت البلاد، فاجتمع هذا المال حتى سيق إليك، وأما هذه فمن حر مالي ، فدخلت إليه جائعا فقيرا، وخرجت عنه شبعان غنيا] [60].

كما أوقف ملوك الطوائف هذه المكتبات بناء على نص الحركة العلمية في عهدهم، التي أظهر الناس فيه ولعا شديدا بذلك، وصار من سمات النبل فيهم والفضالة والرياسة لديهم، حتى ولوكان جامعها وشاريها لا يقرأ ولا يكتب[61].

كما دعا الخلفاء الموحدون إلى إقامة الأوقاف على المكتبات وإجزال العطايا على أصحابها، فكان حرصهم شديد على ذلك، فقد كان مأمون الموحدين أبويعقوب يوسف قد وجد في جمع الكتب واختلاف أنواعه حتى اجتمع له من كتب الفلسفة مما اجتمع إلى المستنصر(366-350هـ/961-976م) وإقامة الأوقاف على خزائن الكتب[62].مكتبات غرناطة: كما تبارى الغرناطيون على إمتلاك المكتبات الخاصة،حيث انتشرت عادة كتابة الفهارس بأسماء شيوخهم[63].

كما أن الخط في عصر الطوائف أصبح حلية يتزينون بها أبناء الملوك والأغنياء والفقراء من الناس، فالفقراء كانوا يتسلفون بها رغم قلة مدخولها، فقد أشار عدد من الشعراء الى تأفف الوراقين وشكواهم من الوراقة فقد ردد هذا الصدى الشاعر الأندلسي أبومحمد عبد الله بن صارة الأندلسي الشنتريني:

اما الوراقة فهي انكد حرفة أوراقها وثمارهـا الحـــــرمان

شبّهت صاحبها بصاحب ابرة تكسوالعراة وجسمها عريان[64]

وبظهور مجالس الإملاء وصناعة الوراقة بالإضافة الى طبقة الوراقين الذين يعنون بالنسخ وتصحيحها وتجليدها وبيعها ازدهرت حرفة نسخ المخطوطات وبلغت ذروتها في القرن 4هـ[65].

أما الأغنياء فهم أبناء الملوك كانت تنقذهم هذه الحرفة أحيانا من الضياع،فعندما فقد المعتمد بن عباد ملكه لم يجد احد أولاده وهويحيى إلا الوراقة يتخذها حرفة، وقد نسخ لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين نسخة من الموطأ،وصلت أجزاء منها إلينا[66].

وهي آية في الإتقان وعلامة ما وصل إليه الخط في الأندلس يومئذ من الحسن والجودة، ومثل ولد المعتمد ولد ابن الرميمي فقد ذكر عبد الواحد المراكشي انه عاش في فاس بعد الإمارة خاملا يسكن غرفة ضيقة ويقيم أوده من نسخ الكتب وفي ذلك يقول:

أمسيت بعد الملك في غرفة ضيقة الساحة والمدخل
تستوحش الأرزاق من وجهها فما زال الدهر في معزل
النسخ بالقوت لديها ولا تقرعها كف أخ مفضل

وفي العصر المرابطي أيضا كانت طبقة أخرى من الخطاطين لا تشكومن الحرمان وهم كتاب الدولة، وأشهرهم أبوعبد الله بن أبي الخصال الذي كان يخط العلامة السلطانية بمداد خاص،وكان خطه نموذجا يحتذى به[67].

وقد كان الكتاب والخطاطون في عهد ملوك الطوائف والمرابطين معجبين بخط ابن مقلة، وينسب لأبي عبيد البكري تارة ولأبي مروان بن سراج تارة هذا البيت المشهور:

خط ابن مقلة من أرعاه مقلته ودت جوارحه لوأنه مقل

حيث كان خطه معروف لدى الخطاطين،قال ابن خليل في فهرسته-من أعلام العصر الموحدي-:"شاهدت بجامع العدبس بإشبيلية ربعة مصاحف في أسفار ينحى به لنحوخطوط الكوفة إلا انه أحسن خط وأبينه وأبرعه وأتقنه فقال لي الشيخ أبوالحسن ابن عظيمة وهوأشهر مقرئ مجود في ذلك الوقت هذا خط ابن مقلة"، وانشد البيت السابق[68].

وعرف المغرب في عصر المرابطين صناعة الورق أيام يوسف بن تاشفين، حيث كان بفاس 104 معمل للكاغد، وهذا يدل على انتشار الكتابة على الورق إلى جانب الرق في المغرب المرابطي[69].

وفي هذا العهد كانت بمدينة فاس مركز للوراقة بمعناها الواسع، ترجم في جذوة الاقتباس لأبي زيد عبد الرحمان المعروف بابن الصقر الأنصاري البلنسي والمتوفي بمراكش سنة 523هـ /1123م، وقد ذكر عنه انه سكن مدينة فاس، والتزم الوراقة في الحانوت بغربي جامعها [70].

فلقد كان عصر الموحدين ملتقى الاجتهادات المغربية والمشرقية في الخط وصناعة المخطوط وكان من كتابهم أندلسيون من يكتبون من أنواع الخطوط من الريحان والمشرق الي غير ذلك فلا يدري من يزيد في الحسن على صاحبه[71].

وعندما انتهى زمن الموحدين وتقلصت الحضارة ظلت آثار الخط موجودة بدولة بنونصر بغرناطة فقد تكلم احد المؤلفين فقرة له وهوابن السماك العاملي حيث قال:خط المغاربة وهوالخط يكتب به الآن ويستعمل من أقصى المغرب والأندلس إلى الإسكندرية يتداول به أزيد من خمس مائة سنة،وخط المشارقة وهوالذي يكتب به في مصر والشام والحجاز والعراق وهوعندهم صغير الثلث[72].ويتضح من كلام ابن خلدون (ت808هـ/1405م) في مقدمته ما سماه بالمتأخرين (الخط المغربي) التي تدل على الخط الحديث الساذج المشتق من الأندلسي.

ثانيا-خطاطوالمصاحف الأندلسيين:

تفنن المسلمون عبر العصور في تجويد كتابة المصاحف في الصدر الأول، وبلغت كتابة المصاحف عند أهل الأندلس من الكمال وحسن الخط ما لم تدركه من قبل وبعد، فكانت نسخ المصاحف أحسن ما يكتب من حيث تجويد الخط والشكل: قيل: رأى ابن خليل بنفسه مصحفا في وادي الحجارة في آخر ملاحظة تقول: كتبته بقلم واحد قطع مرة واحدة[73].

ونال المصحف من الوراقين الأندلسيين اهتمام عظيما، وشهد من كثير منهم عناية فائقة سواء في نسخه اوتجليده وزخرفته، ولا تزال في بعض دور الكتب في تونس والجزائر والمغرب نسخ عديدة من القران الكريم مكتوبة بخط أندلسي لبعض وراقي الأندلس، فيذكر ابن الخطيب (ت776هـ/1374م) أن الأمير عبد الله أمير غرناطة كان بديع الخط، وخلف ضمن ذخائره قطعة من القران الكريم (بخطه في نهاية الصنعة والإتقان[74].

ومن الخطاطين الأندلسيين الذي خطوا المصحف الشريف نذكر منهم:

1-احمد بن عمر الشعري (ت 350هـ /961م)الوراق المقريء، قرطبي يكنى أبا بكر، كان يكتب المصاحف وينقطها، وكان الناس يتنافسون على ابتياعها لصحتها، وحسن ضبطها وخطها[75].

2-ومن الخطاطين سليمان بن محمد المعروف بابن الشيخ القرطبي (ت 440هـ/1050م)، كان خطاطا بديع الخط، فكتب بخطه مصاحف كثيرة، واستمر على ذلك من أول نشأته بقرطبة، وحتى وفاته بطليطلة بعد ذلك[76].

3-وينسب إلى الوراق محمد بن إسماعيل بن محمد المعروف بحبيش القرطبي مهارته الفائقة في كتابة المصاحف، حتى انه كان يكتب المصاحف في جمعتين أونحوهما، وكان أبوه إسماعيل متوليا قضاة اشبيلية للمستنصر الأموي، وبناء عليه فان ابنه محمد قد يلحق بعصر الطوائف[77].

4- ومن الخطاطين المشهورين في الأندلس محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن مفرج الأنصاري، أبوعبد الله بن غطوس(ت 610هـ/ 1161م)، خطاط الأندلس الشهير من بلنسية، كان وحيد عصره في كتابة المصاحف بالأندلس، انفرد في وقته بالبراعة في كتابة المصاحف، ويقال انه كتب ألفْ نصحف، تنافس فيها الملوك وكبار الناس، وكان قد آلي على نفسه ألا يكتب حرفا إلا من القران، خلفه أباه وأخاه في هذه الصناعة[78].

كما تفوقت النساء في هذا اليدان وبرز عديد منهم خطاطات وناسخات ماهرات، غير إن عددهم محدود جدا، وقد أخرجت الأندلس الكثير منهم، ممن جمعن إلى العلم والمعرفة، والبراعة في الخط والكتابة الحسنة لكثير من الكتب[79].

ويكفي للدلالة عل مدى ازدهار الخط في الأندلس ما حكاه المؤرخ ابن فياض قال: " كان بالربض الشرقي من قرطبة مئة وسبعون امراة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي، هذا ما في ناحية من نواحيها، فكيف بجميع جهاتها[80]،كما كانت هناك اسر بقرطبة في ذلك العهد يشتغل جميع أفرادها بالنسخ، وكانت الكتاتيب الخاصة والعامة تعنى أول ما تعنى بالخط ونجد هذا في أشعار رواها الحميدي في الجذوة[81]:

هاك يامولاي خطا مطّه في اللوح مطا
ابن سبع في سنيه لم يطق اللوح ضبطا
لم يقل في الضاد ظاء فحوى لفظا وخطا
دمت يا مولاي حتى يولد ابن ابنك سبطا

كما كان للخليفة المستنصر(350-366هـ/961-976م) كاتبة تدعى لبنى(ت 374هـ/984م) عرفت بالبراعة في الكتابة وسعة الأدب حتى قال في وصفها ابن بشكوال(ت578هـ/1182م):" لم يكن في قصرهم –أي الخلفاء- أنبل منها وكانت عروضية،خطاطة جدا [82].

وممن برعن من النساء الأندلسيات في الخط عائشة بنت احمد، وهي شاعرة قديرة عفة جريئة أديبة خطاط متدينة، قال عنها ابن حيان (ت 469هـ/1076م) في المقتبس: لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يعدلها علما وفهما وأدبا وشعرا وفصاحة، تمدح الملوك وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة، وكانت حسنة الخط، تكتب المصاحف، وماتت عذراء ولم تنكح (ت 400هـ/1010م)[83].

ومن الخطاطات الأديبة صفية بنت عبد الله الربي (ت417هـ/1034م) كانت جميلة الخط، مشهورة بذلك، وحدثت أن عابت خطها إحدى صديقاتها فقالت:

وعائبة خطي فقلت لها اقصري فسوف اريك الدر في نظم اسطري

وناديت كفي كي تجود بخطها وقربت أقلامي ورقي ومحبري

فخطت بآبيات ثلاث نظمتها ليبدوبها خطي فقلت لها انظري[84]

وقد ساعد التوحيدي على ذلك احترافه للوراقة، واتصاله بكل طبقة من طبقات المجتمع بحيث أصبح همزة الوصل بين النحوي والفيلسوف واللغوي والمتكلم، وربما احتكم إلى رأيه في التمييز بين الرجال والتفاضل بين الكتاب، وطالما سئل عن الفلاسفة الذين لقيهم، والمتكلمين الذين حادثهم، والوزراء الذين التحق بهم.

ثالثا-اهتمام الأندلسيين بتجليد وزخرفة المصاحف الشريفة:

بلغ الأندلسيين في تذوقه الجمال للخطوط شوطا كبيرا لدرجة أنهم كانوا يسارعون لاقتناء الكتب التي يكتبها أمهر الخطاطين، وإنهم كانوا يعكفون في سبيل الحصول عليها الأثمان الغالية.

وقد عرف عن وراقي الأندلس أنهم من امهر الوراقين، وأحذقه في هذا الميدان، ووصفت خطوطهم بأنها مدورة، فمنذ عصر الإمارة كانت دكاكين الوراقين قليلة إلا إن حرفة نسخ الكتب وتجليدها كانت مزدهرة من قبل ولاسيما فيما يتعلق بتجهيز النسخ الجذابة للقران الكريم [85]، لم تقتصر صناعة التجليد على مصر وحدها، بل إن بلاد المغرب

والأندلس تفوقت في هذا المجال الفن منذ القرن 6هـ ، لكن هذه الصناعة بلغت أوجها في القرن 7هـ/13م[86].

وقد استطاعوا إتقان الزخارف المذكورة بعد أن تخلوا عن طريقة الضغط بقطعة مدببة من العظم أوالخشب، اوالدق بالة معدنية البسيطة التي تنتج الرسوم الهندسية ورسوم الفروع النباتية واستخدموا القوالب النباتية التي كانوا يضغطون فيها الجلد قوة فتظهر فيها النتئوات الشديدة البروز على شكل العناصر الزخرفية النباتية والحيوانية بل والصور الآدمية [87].

1-التجليد: وفيما يخص التجليد أوالتسفير فقد وصلت إلينا بعض المؤلفات ذات القيمة على ندرتها أقدمها كتاب التيسير في صناعة التسفير للفقيه بكري بن إبراهيم الاشبيلي ت 628هـ، وأرجوزة تدبير السفير في صناعة التسفير لشخص يدعى ابن آبي حميدة الذي عاش في القرن 9هـ ثم الرسالة التي كتبها أبوالعباس احمد بن محمد السفياني ق 10هـ عن صناعة التسفير وحل الذهب[88].

ولعله من الغريب أن كل المؤلفات التي وصلت إلينا عن صناعة الكتاب العربي المخطوط كتبت كلها في المغرب والأندلس، فرغم أن حرفة الوراقة وهي الحرفة المختصة بإنتاج وتوزيع الكتاب فقد لعبت دورا هاما في الحضارة الإسلامية، فانه لم يصلنا أدب مشرقي يعرف بكيفية صناعة المخطوط[89].

ومع ذلك فان ما وصلنا من هذه المؤلفات على نذارته فهومفيد ومتكامل، وهويتعلق بصناعة التجليد التي تعد صناعة متممة للجهد والمحافظة على حصيلة الفكر والمحافظة على الأوراق الكتاب من التلف، والتي تهتم كذلك بالعناية بمظهر الكتاب الخارجي بحيث يتلائم مع قيمته ومحتوياته، وتظهر آثار هذه الصناعة الفنية عل الخصوص فيما وصل إلينا من مصاحف كريمة وربعات شريفة[90].

وتعتمد هذه الصناعة على توظيف بعض المواد المفردة مثل: الجلد والحرير والورق والخشب والخيط والغراء بالإضافة إلى حرفية الصانع في الحبك والقطن والوشم والرسم وغير ذلك [91]. ويورد عمدة الكتاب وهوأقدم نص متكامل يعرف الآلات المجلد ومناقشه ويشرح طريقة الحبك وكيفية اختيار الجلود وإعدادها وشدها وبشرها وطريقة تثبيتها، كما أن كتاب بكر بن إبراهيم الاشبيلي يشرح فيه خطوات عملية التجليد الكتب وصناعتها

ويقع الكتاب في 20 بابا يقسم بعضها إلى فصول:باب الأداة، وباب التحزيم، وباب الحبك [92].

ويعد عمل المجلد استكمالا لعمل الخطاط والمذهب والمصور، وكان الجميع يتعاونون تعاونا كاملا لإخراج المخطوطات لتبدوفيها الوحدة والجمال والفخامة.وكانت العناية بمظهر الكتاب الخارجي عظيمة ليتحقق جماله ومتانته. ولم تقتصر الزخرفة على الغلاف الخارجي لجلدة الكتاب ولسانه،ولكنها امتدت إلى باطن الغلاف،إذ زينت هي الأخرى أبدع تزيين.[93]

وكان الاهتمام بتجليد القرآن العظيم والكتب في الأندلس بالغا وعظيما. كان للأندلسيين اهتمام كبير بالكتب والمصاحف، وبترميمها وصيانتها وحفظها في محافظ جلدية وصناديق خشبية، وبخاصة المصاحف الكبيرة الحجم، وفي أجزاء كثيرة ومتعددة ومتنوعة.

وعثر في جامع الكتيبة على كتب استعيض بلوح الجلد اوالخشب منها الورق السميك (الكرتون)، وهي ابتكارات جديدة في فن التجليد، أما المصاحف فقد خصت إضافة إلى التجليد بصناديق خشبية أوفضية تكريما لها، وربما كست غلافات الكتب بالحرير.

وقد نالت مدينة مالقة قصب السبق في صناعة الجلود عامة، وتجليد الكتب تجليدا فاخرا،فأسهمت بدور فعال في تطور هذا اللون من فنون الكتاب حتى بلغ تجليد الكتاب في الأندلس –من وراء إسهام هذه المدينة العظيمة –درجة رفيعة ليس في الأندلس فقط،وإنما على مستوى العالم الإسلامي[94].

وكان لصناعة الكتب ونسخ المصاحف دور مهم في الحضارة الإسلامية في الأندلس، وارتقى الأندلسيون درجة رفيعة في ميدان التجليد وزخرفة الكتاب ورسومه، وابدوا من المهارة والإتقان في تجليد الكتب والعناية بالشكل الخارجي شيئا عظيما فكان الوراقون حريصين على ان يكون الكتاب في أجمل صورة وأبهى حلة ليطابق مظهره الأنيق الفاخر بما يحتوي بداخله من علم نفيس[95]. وقد ذكر انه يعمل في بلاط الناصر(300-350هـ/912-961م) امهر النساخ باستمرار ومعهم رسامون ومزخرفون، وقد لمعت أسماء كثيرة من النساخ وأهل الخط والوراقين[96].

كما ذكر ان الخليفة الناصر(350-300هـ/912-961م) كان يجمع في بلاطه في قرطبة حذقة المجلدين والنساخين، وكان له من الكتب ما لم يكن احد لمثله، وكان قصره حافلا بالكتب وأهلها حتى بدا كأنه مصنع لا يرى فيه إلا نساخون ومجلدون ومزخرفون يحلون الكتب بالمنمنمات والرسوم الجميلة[97].

وكان لاهتمام الخلفاء بالكتب وتجليدها وتحليتها أثر كبير في ذلك، ومن أكبر الدلائل على هذا اهتمام الخليفة عبد المؤمن بن علي،مؤسس دولة الموحدين بالمغرب (حكم 524-558هـ/1129-1162) بتجليد مصحف عثمان وهوأحد المصاحف التي أرسلها الخليفة عثمان بن عفان إلى الأمصار،والذي أهداه إليه أهل قرطبة.وكان حريصا على تجليد هذا المصحف وتحليته، وجمع لذلك الصناع والمتفننين من سائر بلاد المغرب والأندلس[98].

ومن المجلدين المعروفين في عصر الموحدين عمر بن مرجي الإشبيلي، وكان يرصع جلود المصاحف بالجواهر.ومن المجلدين المعروفين هذا العصر أبوعمروبكر ابن إبراهيم بن المجاهد اللخمي الإشبيلي،نزيل فاس ومراكش (628أو629هـ)[99]، وقد وضع هذا رسالة في استعمال لوح،ثم المصاحف الملوحة،وتخصص الرسالة –للأوعية المصحفية –البابين السادس عشر، والسابع عشر:باب العمل في الأقربة المبنية، وفي ختام هذا الباب ترد إشارة إلى صفة عمل أوعية جلدية للمحابر والأحقاق والأدراج والأغشية وغيرها،مع تخصيص باب على حِدَة لطريقة العمل في إعداد رقعة جلدية لحفظ السكين والمقروضين، أولصيانة الأقلام[100].

ينظف إلى ذلك الفصل الهام الذي أورده القلقشندي في أوائل القرن 9هـ عن آلات الخط والآلات التي تمثل الدواة والقلم وبريه والمداد والحبر وصنعتهما وليق الافتتاحات، وما يكتب فيه من قراطيس وورق [101]، فأبدى الأندلسيون من المهارة والإتقان في تجليد وزخرفة الكتب والعناية بشكلها الخارجي شيئا عظيما،وارتقوا درجة رفيعة في هذا الفن[102].

2-التذهيب: انتشر منتجوالورق بطواحينهم في سمرقند وبغداد ودمشق وطرابلس وفي فلسطين والأندلس، وتبعهم المجلدون متأثرين بفن التجليد الصيني، يعدون علاقات رائعة للكتب، وكان المخطوط يعتمد اعتماداً كبيراً في إخراجه النهائي على الورّاق، ولقد كان المخطوط ينطوي على التذهيب والتجليد والتلوين إضافة إلى النسخ الذي هوعمل "الوراق" الأساس.

ولقد كان للتذهيب علماء مروا على هذا الفن كاليقطيني وإبراهيم الصغير وأبي موسى بن عباد ومحمود محمد. وذكر ابن النديم (ت 384هـ/1047م) في الفهرست بأن هؤلاء كانوا يذهِّبون المصاحف، وكانوا يذهبون الجلود بطريقة الشرائح على جلود المصاحف أوبالطريقة الحرارية بعد ذلك، ولقد كان "الوراق"يلون بعض الحروف لتمييزها عن بعض ولا سيما بعض الحروف المتشابهة كالباء والتاء والثاء وبعض الحركات. ودخلت رسوم النباتات الملونة إلى المخطوطات، ولقد أخذ الغرب فن التجليد عن الفراعنة المصريين، الذين استخدموا التجليد للكتب المقدسة، وكان من الخشب المغلف بالجلود التي كانوا يغلفونها أيضاً بالأحجار الكريمة، ثم استبدلوا بحشوات الكتاب والغلاف والجلد والتجليد، والحشوات الداخلية أوراق البردي المقوي في ذلك الزمان عندما يقوم الخطاط بكتابة الخطوط يترك الفراغات اللازمة لتزيين بعض صفحات الكتاب وحواشيه وبدايات الفصول ونهاياتها،فضلا عن الصفحات الأولى والأخيرة.ويقوم بهذا العمل فنان متخصص في رسم الزخارف بالألوان المختلفة،ثم يسلم المخطوط بعد ذلك للمذهب الذي يقوم بتهذيب وتلوين هذه الرسوم.وكان بعض الرسامين يجيدون التذهيب أيضا،لذلك حرصوا على إضافة كلمة مذهب قرين أسماءهم صفة يعتزون بها[103].

ويعد المصحف الشريف من المخطوطات الأولى التي خصها الفنانون بجهدهم لتجميله وزخرفته،وتطوير أساليب رسمه وحفظه.وطبيعي أن تكون كتابة المصاحف أول الميادين التي عمل فيها الخطاطون والمذهبون،وقد كانت العناية الفائقة بالخط سببا في تطويره على يد خطاطين فنانين تفننوا في تجميل حروفه وتقويسها ومدها،وزخرفة رؤوسها وذيولها بالأوراق والأزهار والسيقان،حتى انفرد الفن الإسلامي من بين فنون العالم اجمع بالخط الزخرفي الذي استعمل في أوسع نطاق،وفي جميع المنتجات الفنية[104].ويشير ابن سعيد إلى أنَّ الخط الأندلسي الذي رآه في مصاحف ابن غطوس (ت610هـ/1213م) بشرقي الأندلس وغيره من الخطوط المنسوبة للأندلسيين،لها حسن فائق ورونق وبهاء ياسر الألباب، وترتيب يشهد لمن كتبها بقوة الصبر والجَلَد والإتقان[105].

فقد استخدمت طرق كثيرة في التذهيب منها الضغط بالذهب المصهور أوالضغط بصفائح الذهب تحت القوالب الساخنة المنقوشة، وكذلك وضع تلك الصفائح على الزخارف المضغوطة، وإعادة الضغط عليها[106].

ومما أضافوه إلى هذا الفن "الشمسية" التي وضعوها في وسط غلاف الكتاب و"المغرب واللسان" الذي يحفظ ويحدد الصفحة، ويحفظ مقدمة الأوراق، والتزيين الخلفي، والطبع بالخاتم، وتلوين الحلقات، والشرازي التي تجمع الملازم، وأوجد العرب الطيارة أوالجزرة الموصولة بالجلد والتي عليها تعليقات العلماء والأساتذة والطلاب، وهي مربوطة في الوسط عند البحث عن ورقة ممسوكة بقطعة من القماش، ممسوكة بالشيزرة في وسط الكتاب، يستطيع التلميذ أن يعود إليها ليستدرك ما علق عليه أستاذه.

إن كم رزم من الأوراق، وليترات من الحبر صنعت من السناج والصمغ العربي استهلكتها الأيدي الدائبة على الكتابة في كل عام، وكم من جلود أمدتها صغار الغزلان والماعز قد استنفدت في هذا الغرض. وهكذا أصبحت تجارة الكتب، تماماً كالصيدلة، هدية قدمها العرب للبشرية، ولذلك تؤكد هونكة على أن «تاجر الكتب لم يُعرف كوسيط لنقل الثقافة، ومتاجر الكتب كمراكز للثقافة في المدينة، قبل أن يفعل العرب ذلك»[107].

الخاتــمة:

ان صناعة الورق واستخدامه للكتابة كوعاء للمعلومات من الأحداث المهمة في تاريخ الحضارة الإنسانية، لأن بواسطته استطاع الإنسان من نشر المعرفة على نطاق واسع، وبطريقة ميسرة لم يكن كذلك من قبل، فتوفرت المعلومات بمختلف جوانب الحياة في كل مكان.

وقد أدت الوراقة ثورة في الإنتاج الفكري والعلمي في كافة أصناف العلوم، زد على ذلك أن انتشار الورق ساعد بشكل كبير على ظهور طائفة من الوراقين الذين كان لهم دور أساسي لا يمكن تجاهله في مجال نشر العلم والمعرفة والثقافة الإسلامية، وكانت دكاكينهم منتديات ومراكز ثقافية وملتقى للأدباء والمفكرين.

وتدين الدول الغربية لإسبانيا العربية الإسلامية التي تعتبر أول دولة دخلت إليها هذه الصناعة، حيث أشارت الموسوعة البريطانية أن صناعة الورق انتقلت إلى أوربا قبل الجلاء العربي عن الأندلس 97هـ/1492م، فقد انتشرت صناعة الورق في ايطاليا عن طريق بلاد الشام، حيث أنشأ فيريانوأول طاحونة هواء لصناعة الورق في إيطاليا سنة 1276م، وبدأت تصبح صناعته في مختلف المقاطعات الإيطالية، ومنه انتقلت إلى ألمانيا سنة 1320م حيث أسس أول مصنع للورق في ألمانيا سنة 1390م.

قائمة المصادر والمراجع:

-المصادر بالعربية:

-ابن بشكوال (أبوالقاسم خلف بن عبد الملك ت578هـ/1182م): الصلة، دار الكتاب المصري اللبناني، مصر وبيروت، 1989م. ط.1.

-الحميدي (أبوعبد الله محمد بن أبي نصر الأزدي): جذوة المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1997م.

-الحميري (أبوعبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله بن عبد المنعم ت 866هـ/1461م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحق: ليفي بروفنسال، ط2، دار الجيل، بيروت،1988م.

- ا بن خلدون (ولي الدين عبد ارحمان ت 808هـ): المقدمة، ط1، دار الفكر، لبنا، 2003م.

-ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، وضع هوامشه: خليل المنصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،1984م، ج1.

-الضبي (أحمد بن يحى بن أحمد بن عميرة الضبي ت599هـ/1202م): بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس علمائها وأمرائها وشعرائها وذوي النباهة فيها ممن دخل إليها أوخرج عنها، تحق: إبراهيم الإبياري، ط1، دار الكتاب المصري واللبناني، بيروت ومصر، 1989م.

-عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة، 1963م.

- ابن الفرضي (أبوالوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي ت403هـ/1012م): تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف، مصر، 1966م-

-مجهول: ذكر بلاد الأندلس، تع وتر: لويس مولينا، مدريد،1983م.

-المقري (أبوالعباس أحمد بن محمد التلمساني ت1041هـ/1631م): نفح الطيب من غصن، الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحق: حسين مؤنس، دار صادر، بيروت، 1988م، ج1، ج2، ج3، ج4،ج5.

قائمة الهوامش:

[1] محمد المنوني: تاريخ الوراقة المغربية (صناعة المخطوط من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة)، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1991م، ص11

نفسه، ص[2]11

[3] ابن خلدون: المقدمة، ط1، دار الفكر، لنان،2033م، ص403-404. عبد السلام هارون، تحقيق النصوص ونشرها، مكتبة الخانجي، القاهرة، دت، ص20

نفس المرجع، ص20 [4]

: المرجع السابق، ص16. رعد ناجي عبود: التطور التاريخي لأوعية ومصادر المعلومات، مجلة مداد الدب، جامعة الأنبار، دت، العدد السادس، ص490491. عبد الكريم السمك: الورق وصناعته في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص[5]01

ابن خلدون، المصدر السابق، ص[6]403

هارون، المرجع السابق، ص[7]16

[8] أيمن فؤاد السيد: الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات، ط1، دار المصرية اللبنانية، لبنان ومصر، 1997م، ص21

هند عبد الحليم، المسلمون وصناعة الورق،ص[9]02

نفس المرجع، ص 488-489[10]

بركات محمد: الورق والوراقة والوراقون في الثقافة العربية، ص[11]01

[12] ستناوود كب: المسلمون في تاريخ الحضارة، ترجمة محمد فتحي عثمان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م، ص99-100

،ص01 محمد بركات، المرجع السابق[13]

[14] مصطفى محمود سليمان: تاريخ العلوم والتكنولوجيا في العصور القديمة والوسطى ومكانة الحضارة الإسلامية فيه، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2008م، ص505

،ص01 بركات، المرجع السابق[15]

هارون عبد السلام: المرجع السابق، ص[16]17

نفسه، ص[17]17

سيد، المرجع السابق، ص[18]21

نفس المرجع، ص15 [19]

نفس المرجع، ص[20]147

نفس المرجع، ص[21]19

نفس المرجع، ص[22]18

رعد ناجي، المرجع السابق، ص[23]492

نفس الصفحة بركات، المرجع السابق [24]

نفس الصفحة[25]

ريسلر: الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، القاهرة، 1960م، ص185[26]

المنوني، المرجع السابق، ص17[27]

نفسه، ص18[28]

[29] محمد بنشريفة: نظرة حول الخط الأندلسي، كلية الآداب، الرباط، دت، ص75

سيد: المرجع السابق، ص13[30]

نفسه، ص14[31]

ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مكتبة الخانجي، 1981م،ج3،ص76[32]

33 ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1981م، ج2، 58

[34] محمد عبد الحليم عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ط1، دار الفكر، القاهرة، 1982م، ص81

35 مجهول: أخبار مجموعة فتح الأندلس، دار الكتاب المصري واللبناني، مصر ولبنان، 1981م، ص 120

36 خوليان ريبيرا: اهتمام المسلمين في الأندلس بالكتب، ترجمة: جمال محرز، مجلة معهد المخطوطات العربية، ص 86

37 ألكسندر ستيبتشفيتش: تاريخ الكتاب، القسم الأول، ترجمة محمد الأرناؤوط، سلسلة عالم المعرفة 1993 العدد 169، ص245

38 زناتي، المرجع السابق. أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، ص420

39 ابن حيان: المقتبس في أخبار رجال الأندلس (تحقيق الحجي)، دار الثقافة، بيروت،1995م، ص207

40 يوسف أحمد يوسف: علم التاريخ في الأندلس، ص 25

Imamudin , Apolitical history of muslim Spain Dacca,1969, p. 176 41

للمزيد، راجع، خوليان ريبيرا: التربية الاسلامية في الأندلس، تر: أحمد الطاهر مكي، دار المعارف، القاهرة،1977م، ص 157، ومحمد عبد الحميد عيسى، المرجع السابق، ص81

المرجع السابق، ص03 زناتي، [42]

،ص01 بركات، المرجع السابق[43]

ابن عذاري، المصدر السابق، جـ2، ص245 [44]

[45] ريبيرا: المرجع السابق، ص 156

[46] حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط1، مكتبة النهضة المصرية، 1996م، ج3، ص437. محد الجابري: تكوين العقل العربي، ط6، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1994م، ص302.السيد محمود: تاريخ العرب في بلاد الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، 1999م، ص45

[47] سيد حسب الله، المرجع السابق، ص 148

[48] حمدي عبد المنعم، محمد حسين: دراسات في التاريخ الأندلسي، مؤسسة شباب الجامعة، 1990م، ص 152.أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه (الإدارية، السياسية، الأدبية، العلمية، الاجتماعية، الاقتصادية والفنية)، ط3، دار الفكر، بيروت، 1983م، ص 543

[49] أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ط4، مكتبة النهضة، مصر،1973م، ص155

[50] المقري، المصدر السابق، ج1، ص -385-386

[51] محمد ماهر حمادة: رحلة الكتاب العربي إلى ديار الغرب فكرا ومادة، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992م، ص36. جاسم بن محمد: تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، ط1، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 2000م، ص 151. علي أدهم: منصور الأندلسي، الهيئة المصرية للكتاب، 1974م، ص23

[52] محمد عابد الجابري: المرجع السابق، ص 302.آنجل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، دت، ص10. عبد العزيز سالم، محاضرات في تاريخ الحضارة الاسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1997م، ص 211-212

[53] ريبيرا، المرجع السابق، ص 156

[54] المقري: نفح الطيب، ج1، ص385-386

[55] بركات، المرجع السابق،ص01

[56] عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة،1997م، ج3، ص436. نسيم حسبلاوي: الحياة الفكرية في الأندلس في عصر الدولة الأموية (مذكرة ماجستير)، اشراف أ.د محمد الأمين بلغيث، قسم التاريخ، الجزائر،200-2001م، ص28

[57] المقري، المصدر السابق، ج1، ص155

[58] نفس المصدر، ج4، ص96

[59] قاعدة كورة، تقع قبل مدينة باجة، ولها بسائط فسيحة وبطائح عريضة، ولها جبل عظيم منيف، ولها غلات وجنات، وعلىها أرحاء، وأهلها وسكان قراه عرب من اليمن، حاصره ابن الرّنق سنة 585هـ/1191م، فلم يزل محاصرا لها إلى أن ضاق أهاها بالحصار وصالحوه. الحميري: الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق ليفي بروفنسال، ط2، دار الجيل، بيروت، 1988م ص106-108.مجهول: ذكر بلاد الأندلس، تعريب لويس مولينا، مدريد، 1983م، ص52-54

[60] ريبيرا: المرجع السابق، ص 183

[61] محمد صالح السجستاني: عوامل ازدهار النشاط الفكري في عهد ملوك الطوائف، بحوث ندوة الأندلس، الاسكندرية، 1994م، ص 191-192. صالح البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الاندلس، معهد البحوث العلمية، مكة، 1997م، ص112

[62] محمد عابد الجابري: المرجع السابق، ص 316

[63] الطوخي،المرجع السابق،ص320

راجع في ذلك:عابد سليمان المشوخي:نسخ المخطوطات، مركز فيصل للبحوث،عالم الكتب، الرياض،1994م،ص12

[64] انظر: جوتهالف جستراسر، أصول نقد المصادر ونشر الكتب، تحقيق: محمد البكري، ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1995م، ص14. محمد بن شريفة، المرجع السابق، ص79

[65] نفسه، ص79

[66] نفسه، ص80

[67] محمد بنشريفة، المرجع السابق، ص80

[68] محمد المنوني: المرجع السابق، ص21

[69] نفسه، ص21

[70] نفسه، ص81

[71]

[72]نفسه، ص83

[73]بعيون: المرجع السابق، ص154

[74]نفسه، ص154

[75]نفسه، ص155

[76]نفسه، ص155

[77]نفسه، ص155

[78]نفسه، ص156

[79]نفسه، ص157

[80] عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط1، دار الكتب العلمية، القاهرة، 1963م، ص456-457

[81]بنشريفة، المرجع السابق، ص76

[82] ابن بشكوال: الصلة، دار الكتاب المصري واللبناني، مصر ولبنان، 1989،تر 1541، ص992. الضبي: بغية الملتمس، ط1، دار الكتاب المصري واللبناني، مصر ولبنان، 1989م، تر1596، ص732

المقري، المصدر السابق، ج4،ص[83]290

[84] الحميدي: جذوة المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ط1، دار الكتاب المصري واللبناني، مصر ولبنان، 1997م، ص412.

[85]بعيون: المرجع السابق، ص149

[86]سيد: المرجع السابق، ص41

[87]نفسه، ص41

[88]نفسه، ص15

[89]سيد، المرجع السابق، ص36

[90]نفسه، ص37

[91]نفسه، ص37

[92]نفسه، ص37- 38

[93]بعيون، المرجع السابق، ص151

[94]نفسه ، ص152

[95]نفسه، ص150

[96]نفسه، ص149

[97]نفسه، ص149

[98]نفسه، ص152

[99]نفسه، ص152.المنوني، المرجع السابق، ص29

[100]نفسه، ص132

[101] سيد، المرجع السابق، ص18

[102]بعيون، المرجع السابق،ص153

[103]نفسه، ص150

[104]نفسه، ص150-151

[105]نفسه، ص151

[106]سيد، المرجع السابق، ص44

[107]بركات، المرجع السابق،ص02